

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة على ما فيه من روعة، ودقة، وجمال، وعلى ما أداه من خدمات جليلة في ميدان المنطق الجدلي، لا يقوم على أساس " معقول " .

العقل قاصر إذا فيما يتعلق بالأخلاق، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالالهيات، ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان، ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والالهيات. وإذا كانت قد تحدثت في التشريع، فإن التشريع داخل في نطاق الأخلاق.

بيد أن الأديان إذا كانت قد أخذت موقفا حاسما فيما يتعلق بتحديد الخير والشر، فإنها في المغيبات لم ترهق الإنسان من أمره عسرا، فتوضح له ما ليس في مقدوره إدراكه، أو تبين له ما يسمو عن التبيان.

أما هذا الذي يسمو عن التبيان، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذي لا يدخل في نطاق المحسوسات، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقلية: أعني المساتير.

لذلك رسمت الأديان في هذا المحيط إطاراً عاماً فقط، وهذا الإطار العام نفسه مبني بعضه على الحس، وهو داخل في نطاق الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب: " لو كان فيهما آلهة إلا لفسدتا " أما بعضه الآخر فهو المتشابهات " فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة " .

هناك إذاً إطار عام لا يرضى النفوس الطمّنة، التي أبت - خطأ - أن تعترف بحدود للعقل، أو بقصور فيه، فبحثت داخل هذا الإطار فكان ما كان من تشعب، وفرقة، واختلاف. بماذا نفسر هذا الافتراق؟

إننا لا نشك في أن رؤساء الفرق الإسلامية، معتزلة كانوا أم أشاعرة، وشيعة كانوا أم أشاعرة، وشيعة كانوا أم سلفيين، قد تشبعوا بإيمان راسخ، وحرارة دينية فائقة، وعقيدة لا تززعها الأعاصير، وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة: كتاب الله، وحديث رسوله.

فلم كان الاختلاف؟ ولم هذا التشعب الذي لا ينتهي؟

لسنا - في تحليل ذلك - أمام مشكلة لا تحل، إذ الشأن في ذلك إنما هو الشأن